خمسة قروش

إلى صغيرتى ع. د. مع الحب والإعزاز

هى طفلة لم تتخط بعد عهد التفتح والازدهار ؛ ضن عليها القدر برفيق تأنس به ، فظلت وحيدة أبويها تعيش فى كنفهما عيشة العزلة والانفراد .

دنياها التى ألفتها : عم كسيح قيد الشلل أوصاله ، لا مشغلة له فى يومه الأطول إلا الشكاية والسخط ، وعمة اغتالت المنية عائلها فخلت لطفلة أخيها ترعاها فى صرامة وحزم ، فما لبثت أن فترت صلات الطفلة بعمتها لما تلقاه على يديها من شدة وعنت .

وكانت الطفلة تلقى فى الحين بعد الحين خالة لها عقيماً لم تكتحل عيناها بمولود بعد ، فصبرت على حرمانها تمنى النفس حتى تبدت فى سمائها تلك الطفلة ، فحومت حولها تحويم الحمام على فرخه الصغير .

لم يكن مستغرباً من الخالة أن تبسط لابنة أختها جناح

حنانها كلما قدمت لزيارتها ، ولم يكن من المستغرب من الطفلة أن تسعى إلى خالتها تطلب عندها الأنس والسلوى ، فما جمعتهما جلسة مشتركة إلا ارتدت بالخالة السن فتبدو وكأنها صبية لها ما للصغار من خصال ، وفيها ما فيهم من مرح ونزق .

واستقر فى ذهن الطفلة أن خالتها ما هى إلا خدين تلعب معه وتسمر ، إذ كان من المحظور عليها أن تشارك لداتها من صغار الحى الانطلاق والمراح ، فقد أزمع والدها أن ينشئها تنشئة طابعها جد واتزان .

لا غرو أن تنبت بين الخالة وبنت أختها أواصر ألفة سرعان ما تطورت فأضحت حباً عارماً يحمله كلاهما لصاحبته دون مواربة أو خفاء .

واعتادت الطفلة كلما باعدت شواغل الحياة بينها وبين خالتها أن تجلس إلى « الهاتف » تناجيها فى ثرثرة موصولة ، وتنمق لها لوحاً يستوعب كل ما وقع لها من حوادث ومغامرات ، فتظفر من خالتها على متن الأثير بالمديح والإطراء فى حديث مؤنس ترصعه نكات ودعابات .

ويوماً أسر إليها الهاتف بنبأ أزعجها .

ذلك أن خالتها حليفة الفراش مقيدة إليه بأمر الطبيب .

وفى حجرة المريضة وقفت الطفلة على سر المرض ، وهى تنصت إلى صوت خالتها يترنم بقولها ، وقد التمع وجهها من بشاشة وإشراق :

عما قريب يكون لك رفيق تمرحين معه وتلعبين .

وانطلقت الطفلة تسأل وقد أثار قول خالتها فضولها :

متى يكون ذلك . . . أفى غد أظفر به ؟

ـ لا يا حبيبتى . . . بعد بضعة أشهر .

ـ أيمكننى أن أراه ؟

ـ لم يحن الوقت بعد .

ـ وأين هو الآن ؟

فأومأت الخالة إلى جنبيها تقول وقد التمعت عيناها وتورد خداها من اعتزاز وزهو :

هنا .

وامتدت يد الطفلة إلى خالتها تتحسسها فى رفق وتهيب .

وابتسمت الخالة تسألها :

ماذا تريدين أن يكون المولود . . . بنتاً أم غلاماً ؟

ـ بنتاً . . . نعم بنتاً .

واتفقا فيما بينهما على نوع المولود دون أن تبدى الخالة أى تمنع أو اعتراض .

فليكن ما يكون . . . المهم أن تظفر الحامل بمولود تسعد به وتستبشر .

ويوماً دلفت الطفلة إلى خالتها تحمل بين يديها صرة صغيرة ، وتقربها من سرير الخالة تفك عقدها وهى تشقشق بقولها :

هاك بعض الملابس . . . خطتها بيدى .

وأنشأت تعرض على خالتها مزقاً هينة لا تصلح لبوساً إلا للعرائس والدمى .

لم تتمالك الخالة إلا أن تحتضن الطفلة تطبع على خدها قبلة حافلة ولسانها لا ينفك يرطب مسامع الطفلة بكلمات التشجيع والإعجاب .

وتصرمت أيام .

وجاءتها الطفلة تزورها على المألوف ، وما استقرت بجانب خالتها على السرير ، حتى دست يدها فى يدها تقول :

هاك خمسة قروش . . . هدية للمولود .

فابتسمت الخالة ابتسامة ساطعة ، ثم احتضنت الطفلة تقبلها فى شوق مزيد .

وقهقهت الأقدار وهى تضرم النار فى ذلك الحلم السعيد ، فما نشب أن تناثر رماده فى رحاب الفضاء .

أجهضت الخالة .

وتبين للطفلة من أمشاج الأحاديث أن أمنيتها خنقت فى

مهدها ، وقد غيبتها الأقدار فى عالم بعيد المنال . . . فى جب سحيق تسد فوهته جنادل صماء .

ومنذ ذلك الحين حبست الطفلة لسانها لا تجريه بذكرى ذلك الأمل المفقود .

وطويت أسابيع .

وكانتِ الطفلة جالسة تثرثر لخالتها ثرثرتها الأنيسة .

وعلى حين بغتة كفت عن الكلام ، وواجهت خالتها تهمس لها بما كان يشغل بالها ويمض خاطرها :

أين خمسة القروش . . . . لم يعد لك بها حاجة !

وأحست الخالة بطعنة تنفذ فى أعماقها ، لكنها كظمت ألمها ، وقامت متثاقلة إلى حجرة نومها ، تستخرج من صوان الملابس صرة المزق وكانت النقود بينها ، فأخذتها وعادت إلى الطفلة وهى تجتلب لفمها بسمة متكلفة ، وتقول :

هاك النقود يا حبيبتى . . . تستطيعين أن تبتاعى بها ما ترغبين فيه من حلوى .

ووثبت الطفلة إلى الباب خارجة وهى تتمثل ما سيقع عليه اختيارها لتشتريه ، على حين انكفأت الخالة على وسادتها تلوذ بها لتخفى فى طياتها عيناً تحيرت فيها الدموع .